مظاهر استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية، مراثي علماء بلاد يوربا النّيجيريين، نموذجا.

بقلم

الدّكتور مسعود باباتندى محمّد الأوّل

أوفا، ولاية كوارا، نيجيريا.

E – mail: - lawalmb2009@gmail.com

Phone no: +2348052315491

+2348109569985

توطئة

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضّوء على مظاهر استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية مستخدمًا المراثي العربية عند علماء بلاد يوربا نيجيريا كنماذج. إنّ القضايا الإنسانية المذكورة والمدروسة في هذه الورقة تتمثل في الجوانب والأمور والشّئون المالية والأدبية والاجتماعية والسّياسية والفكرية والثّقافية والنّفسية وغيرها.

يرى النّقاد العرب أنّ مجال القول يتّسع أمام الشّاعر عندما يرى كبار الرّجال فى الهيئة الإجتماعية لأنّ في أفعالهم وصفاتهم ما يستطيع أن يسجّله في شعره ويشيّد به.

ومما لا بدّ من الإشارة إليه، أنّ هذه المراثى العربية كانت تلعب ولا تزال تلعب دورًا مهمًا ملموسًا كبيرًا فعّالاً بارزًا في تطوير وتحسين حياة النّاس المالية المادية والأدبية والاجتماعية والسّياسية والنّفسية.

احتل موضوع الرّثاء منزلة مرموقة وسامية في إنتاجات علماء بلاد يوربا الأدبية عمومًا والشّعرية خصوصًا، أصبح الرّثاء أشعر غرض، وتظهر هيمنته جليا علي جميع الموضوعات الشّعرية العربية الباقية، إنّ فنّ الرّثاء هو أبرز الفنون الشّعرية وأكثرها صدقًا وغناء بالتّجريبية الإنسانية ولذلك يستحق دراسة أكاديمية مستقلة خاصة.

ولتحقيق هذا الهدف، سيمحور البحث – بمشيئة الله تعالى – حول النّقاط الأساسية التّالية:

١- التّعريف الموجز لكلمة اليوربا لغة وشعبًا وموقعًا.

٢- عرض بعض المراثي العربية المختارة للدّراسة.

٣- تعريف وتقسيم علماء بلاد يوربا.

٤- إبراز واستخراج القضايا الإنسانية المتمثلة في الجوانب الأدبية والمادية والثّقافية والاجتماعية والفكرية والنّفسية والسّياسية وكيفية أثمرتها وطوّرتها وحسّنتها اللغة العربية عمومًا والمراثي العربية خصوصًا.

التّعريف الموجز لكلمة اليوربا لغة وشعبًا وموقعًا

تقع بلاد يوربا غرب نيجيريا الجنوبي وفي قسط يسير من شمالها وأنّها تكتسح النّصيب الأكبر من الجنوب الغربي لنيجيريا، وتقع بلاد يوربا حاليًا ولايات جنوب غربي نيجيريا أي جميع ولايات السّت التى هي لاغوس، أوغن، أويو، أندو، أيكتى، أوشن، وجزءًا كبيرًا من ولايتى كوارا و كوغي في الشّمال الأوسط[١]

يعود تاريخ بلاد يوربا في نيجيريا إلي نحو ألف سنة، وكان يعمرها قوم من البرابرة والزّنوج والنّوبة قبل نزول يوربا الّذين يعتبرون أنفسهم من العرب. وأقدّم بلاد يوربا جميعًا هي مدينة إليفى **ILE-IFE** ثمّ أويولي **OYO-ILE** ثمّ إيكوبى **IKOBI**، وهذه المدن الثّلاث هي التّى كانت بمثابة الأصل سائر يوبا البائدة منها والقائمة، ومنها نزحت القبائل المنتشرة وأسّست جميع البلاد الحاضرة[٢]

وكان اليورباويون في القديم اعتنوا دينًا وثنيًا يعبدون الأصنام ويقتربون بآلهتهم المصطنعة إلي الله زلفى يقتصدونها في قضاء حوائجهم. ومن شفاء المرضى وطلب الولد وجلب المنفعة أو دفع المضرة غير إنّ هذا الدّين الوثني فقد اختفى في مزبلة النّسيان حيث كان الوثنيون أقلّ عددًا، فهولاء كانوا يجدون العربية فضلا من أن ينتجوا الشّعر العربي[٣] وترسخت النّصرانية قدماها في بلاد يوربا ١٩٠٠م بمعونة المستعمرين البرطانيين وأزعموا أهل البلد باعتناقها لذلك كثر عدد المسيحيين في بلاد يوربا بعد المسلمين.[٤]

وأمّا الإسلام فقد دخل إلى بلاد يوربا بواسطة التّجار المسلمين والدّعاة المجاهدين من مالي **MALI**، غير انّه انتشر بطيئيًا طبيعيًا شيئًا فشيئًا حتّى وصل إلى ما وصل إليه اليوم من الانتشار والظّهور. وهذا الإسلام عادة تصاحبه لغته العربية، ففي القديم، تعلّم اليورباويون لغة دينهم لأجل أداء واجباتهم الدّينية لا غير لأنّهم زعموا أنّ الإسلام لا يُفْهَمُ إلا من له قصب السّبق في اللغة العربية إبداعا وظلوا يختلفون دهاليز العلماء وكتابتهم ويستقدمونهم من مغرب وسودان ومالي ونفاوى وبرنو وصكتو حاملين نفوسهم العربية الضّخمة ليتمكنوا من ممارسة دينهم أحرارًا[٥]

وشاء الله أن تنتج تلك الكتاتيب والدّهاليز نحارير من العلماء الأكفاء في بلاد يوربا أتقنوا العربية وأجادها وقالوا بها شعرًا قيمًا وأبدعو نشرًا رائعًا بأنواعها المتنوعة. لله الحمد والمنة، أما الآن فقد انتشرت مدارس ومعاهد ومراكز عربية إسلامية حديثة في بلاد يوربا.

علماء بلاد يوربا النّيجيريين ومستوياتهم العلمية

من الضّروري أن نلقى ضوءًا علي علماء بلاد يوربا ومستوياتهم الثّقافية لكى نفهم هذا البحث فهمًا دقيقًا.

ينقسم هؤلاء العلماء إلي أربعة أقسام:

القسم الأوّل:هم العلماء الّذين لا يعرفون غير القرآن قرءاة وكتابة فقط وبعض مبادئ الإسلام الضّرورية.

أمّا القسم الثّاني: فيحتوى علي العلماء الّذين يعرفون الفقه والحديث وتفسير القرآن العظيم.

إنّ القسم الثّالث:يشمل الرّجال الّذين اكتسبوا وحصلوا على الحذاقة والمهارة في آداب اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة في جميع مراحلها ومستوياتهم الإبتدائية والمتوسطة والعالية.

أمّا القسم الرّابع:فيشتمل على الرّجال الّذين يرتفعون بمستوى إلى ما هو أرقى وأعلى وأعلم من الأقسام الثّلاثة الأولى المذكورة أعلاه، بلغ أصحاب هذا القسم الأخير الذّروة الأدبية واتسعت آفاقهم العلمية واللغوية حتّى ألّفوا كتبًا وقرضوا الأشعار العربية الجيّدة.[٦]

والجدير بالذّكر في هذا الصّدد، أنّ كلمة العلماء المستخدمة في هذا البحث تشير إلى أصحاب القسم الرّابع الأخير ويعتمد البحث على مراثيهم إلى حدّ كبير.

استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية المتنوعة

في مراثي علماء بلاد يوربا النّيجيريين

ومما لا بدّ من الإشارة إليه أنّ هذه المراثي المقروضة بالعربية تحتوى على الفوائد والمنافع الحسية والمعنوية التى أحسنت وطوّرت حياة النّاس المادية أو المالية والأدبية والاجتماعية والنّفسية والسّياسية.

الفائدة المادية أو المالية

قال الدّكتور محمّد محمّد خليفة: "الرّثاء هو لون من المدح ولكنّه مدح الموتى وتعداد مناقبهم وآثارهم والتّفجع على فقدهم"[٧]. وفي رأي محمّد حسن العماري: "وكثيرًا ما يثنى الشّاعر علي المراثى، وحينئذ لا يفترق الرّثاء عن المدح إلاّ أن يختلط الرّثاء بشئ يدلّ على انّ المقصود به ميّت، مثل كان أو عدمنا"[٨]

إنّ منهج الشّعراء اليورباويين في الرّثاء كمنهجهم في المدح، إنّ الشّاعر اليورباوي كان يرسم في مرثيه المثالية الخليقية الرّفيعة التى تقدرها الجماعة، وللأحداث التى شارك فيها، إذ نرى الشّعراء يصورون المثل الخلقية صوراحية ناطقة ويعدو الحصر مااستنبطوه من معان طريفة في السّماحة والكرم والحلم والمروءة والعفة وشرف النّفس وعلو الهمة والشّجاعة والبأس، وقد جسّموها في مرثي تجسيمًا قوّيًا حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين النّاس كي يحتذوها ويحوزا لأنفسهم مجامع الحمد والثّناء وبذلك ظلّت قصيدة الرّثاء تبث في الأمة التّربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرّشيدة.

وكان أولاد وأقارب المراثى يرصدون الجوائز الضّخمة للعلماء كى يرسموا هذه الأوصاف أو الخصال الحميدة الرّائعة. والجدير بالذّكر، انّ هؤلاء العلماء لم يكن يرثون للتكسيب ولكنّهم يجازون جزاء ماليًا ويكافئون مكافأة مادية علي الرّغم أن علماء بلاد يوربا النّيجيريين لم يتخذوا قرض قصيدة الرّثاء وسيلة إلي الكسب، فهم يقدمون بها على أولاد وأقارب وأسرة الأموات يرثون موتاهم وينالون جوائزهم وعطايهم الجزيلة خصوصًا إذا كان المرثي أميرًا أو حاكمًا أو سياسيًا كبيرًا الأحايين، يجمع بعض هولاء العلماء قصائدهم المرثية في كتاب واحد مطبوع مستقل ويبعونه لأولاد وأقارب وأصدقاء وأصهار وزملاء المرثيين.

وجديرًا بالذّكر، أنّ هذه الظّاهرة شجّعت علماء بلاد يوربا النّيجيريين في قرض الرّثاء في اللغة العربية. وخير ما تمثل هذه الظّاهرة المالية أو المادية في الرّثاء هي قصيدة الدّكتور عيسى ألبي أبو بكر للأمير علي عبد القادر.

ترجمة الشّاعر

ولد الدّكتور عيسى ألبي بن أبي بكر عام ١٩٥٣م تعلّم القرآن الكريم ومبادئ الدّراسات العربية على أيدى مشايخ إلورن، وحصل على الشّهادتين الإعدادية والتّوجهية بمركز التّعليم العربي والإسلامي، أغيغي نيجيريا. وحصل على شهادتي الدّبلوم والماجيستير في اللغة العربية بجامعة بايرو بكنو، وعلى الليسانس والدّكتوراه في اللغة العربية من جامعة إلورن، والدّبلوم العالي في تدريس اللغة العربية لغير النّاطقين بها من جامعة الملك سعود بالرّياض.

يحاضر الدّكتور عيسى ألبي أبو بكر في قسم اللغة العربية بجامعة إلورن.[٩]

رثاء الأمير عبد القادر

قصيدة ألقيت في تأبين أمير إلورن الشّيخ علي بن عبد القادر الّذى توفى يوم الجمعة ١١/٨/١٩٩٥ رحمه الله.

رأينا خلال العمر في قطرنا خربا **** فأحدث ذاك الخرب في قلبنا رعبا
بني جلدتي إنّ الـرّزية قد هوت **** عـليـنا فما أبقت لأعقلـــنا لبّا
لــماذا ما ســـرّنا اليوم دهــرنا **** أساء بأضعاف السّرور غد خطبا؟
فهل كان شخصًا في القديم أساءه **** طــبائــع إنسان فأوسعنا ضربا؟
ليــاليه جيش لا يــردّ هجومه **** ليسلب أعــمارًا تفيد الــورى سلبا
متى يأمل الإقلاع عن سوء حاله **** لـــنأمن شرّا لا يطاق كذا عطبا؟
فهل ذاك يكفى المرء درسًا وعبرة **** فيعمل ما يـترضى المهيمن للعقبى؟
أمـير إلورن عشت عيشًا موافقًا **** وأصبحت بين النّاس لا تلتقى سـبّا
وسرت على نهج الرّسول وصحبه **** فصرت حديث القوم شرقًا كذا غربا
علي إذا مـا عدّد وافى زمانـــهم **** صـــنائـعهم والله قد فقت لا كذبا
تعدّد إنــجازات عصــرك كلّها **** فقلنا كسبـنا مـــا يعـــزهم كسبا
مـدحتك حيًّا بالقريض فما سما **** بيانـــي إلى ما كنت جوهره صعـبا
ولكنـنى أرثــيك ميتًا فأهتدى **** وذلك إنـــعام الّذى قـد حبًا حبّا
وقد تسعد المرء الّذى طاب عيشه **** وذكّـــر بالإيـمان في موته قلبا
وهل كنت إلا هادئًا متواضعًا **** يـــزيل عن الأحباب في قصره حجبا

علوت علي العرش الإمارة بيننا **** ولـــم نـــر يومًا في خلائبها عضبا
تـحقق آمـــال الظّباء بسلمها **** كما تـجد الاساد مطلبها حـــربا
أرى كلّ حـــزب يذكرون عليّنا **** بـخير فأرضى ذلك الدّين والـرّبّـا
فـــمأواه عند الله جناتـه التى **** يثيب بـــها من يبتغى عنده قـــــربا (١٠)

المنفعة الأدبية/اللغوية

المنفعة والفائدة الأدبية واللغوية في مراثى علماء بلاد يوربا النّيجيريين، قبل الخوض في هذا القسم نريد أن نأتي بالمدلول اللغوى والاصطلاحي لكلمة الأدب.

الأدب لغة:- ترويض النّفس على القول الحسن والفعل الجميل ولذلك استعمل بمعنى التّعليم كما يؤخذ من قول النّبي صلى الله عليه وسلّم "أدّبنى ربي فأسن تأديبي"

أما الاصطلاحًا:- فهو القول الجيّد البليغ من المنثور والمنظوم، ولكلّ أمة أدبها وأدب كلّ أمة ما تسجل به أفكارها وعقولها وطبائعها من شعر غنائي أو نثر فني (١١)

ونحن هنا نركز هذا القسم على المنفعة الأدبية واللغوية. شاركت قصيدة الرّثاء مختلف الفنون الشّعرية الأخرى في تطورها الفني وأسلوبًا وصورًا ومعاني وعنابة التّرصيع البديعي. ومما لا بدّ من ذكره، أنّ قصائد الرّثاء التى قيلت في بلاد يوربا من عيون القصائد في الشّعر العربي فيها.

إنّ موضوع يعد أشهر غرض في إنتاجات علماء بلاد يوربا الشّعرية. أظهر هذا الموضوع هيمنته على الموضوعات الشّعرية الباقية.

لعبت هذه المراثي دورًا كبيرًا مهما في تحسين وتطوير حياة طلاب اللغة العربية الأدبية واللغوية: وبالتّالى اكتسبوا المهارة والبراعة والحذاقة اللغوية بواسطة قراءتها، أيّد عمر الخطاب وابن عبّاس رأينا في السّطور التّالية: وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كتب إلى أبى موسى الأشعري "مرّ من قبلك بتعلم الشّعر فإنّه يدلّ على معالى الأخلاق، وصواب الرّأي، ومعرفة الإنسان، وكان ابن عبّاس رضي الله عنهما يقول إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله ولم تعرفوه فابتغوه في الشّعر فإنّ الشّعر ديوان العرب"(١٢)

فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مكان آخر: "إذا أشكل عليكم شئ من القرآن الكريم فعودوا إلى الشّعر الجاهلي فإنّه عربي"(١٣)

وإن دلّت هذه الآراء على شئ فإنّه تدلّ دلالة قاطعة على المراثي العربية التى قرضها علماء بلاد يوربا النّيجيريين جعلت وصيّرت قراءها ماهرين أكفاء بارعين أقوياء في فهم كتب الفقه والحديث والتّفسير وبالتّالى أصبحوا فقهاء ومحدثين ومفسرين وشعراءً وكتابًا ومؤلفين ولغويين.

إضافة إلى ذلك، كان رسول الله صلي الله عليه وسلّم يردد ويستشهد بيت طرفة بن العبد

ستبدى لك الأيّام ما كنت جاهلا **** ويأتيك بالأخبار ما لم تزود

وقال صلّى الله عليه وسلّم: "إنّ من الشّعر لحكمة وإنّ من البيان لسحرًا"[١٤]

نأتي بقصيدة الأستاذ عبد الواحد جمعة أربيي للشّيخ عبد الله الصّلاتي:

التّعريف بالشّاعر:

هو الشّيخ عبد الواحد بن جمعة أربيي، ولد عام ١٩٦١م، في بيت دين وشرف وزعامة، التحق بمدرسة الجماعة الإسلامية الإبتدائية لاغوس، وبعد تخرّجه منها الحقه والده الشّيخ جمعة بالمركز الأمّ بأغيغي عام ١٩٧٤م. وحصل على شهادتي الإعدادية والتّوجيهية عام ١٩٨١م. رحل الرّحلة العلمية إلي المملكة العربية السّعودية قضى فيها ثمانية أعوام، تمّ له خلال ذلك الحصول علي شهادات تقديرية عالية أهمها شهادة الليسانس في اللغة العربية ودرجة الماجستير في علم اللغة التّطبيقية بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية بالرّياض، وبعد عودته وظّف محاضرًا في المركز الرّئيسي بأغيغي.[١٥]

نص القصيدة عنوانها:

وداعًا أيّها العبد الرّحيل

وداعا داعي الدّين الجميل **** وداع الشّجو والحزن الثّقيل
وداعـــا أيّها العبد الرّحيل **** بشعـــر بـــل بدمع للرّحيل
وداعا فارس الوعظ البديع **** رماه الحتف بالسّهم القتيل
وداعا حارس الذّكر الصّفى **** بـــزاويـــة مطهّرة القبيل
وداعا يا صلاتـــي الشّجاع **** أيـــا شبلا لأنساب أصول
تـــفارقـــنا أنت لنا خليل **** تفانـــي في معاشرة الخليل
مفاجأة دهتـــنا واحـتـراق **** فكان أشدّ من قرع الصّليل
تفارقـــنا كأنا في احتلام **** فـــأي الرّزء هذا في السّبيل
وداعا اسـمر اللون الغيور **** فصيتك عنبر زاهى الـــذّيول
مضى نجم من الاعلام حبر **** وفحل قـادريّ في الفحول
يداك تـــلاوة وصلاة صبّ **** لـذات محمّد ذاك الرّسول
جهادك نيّـــر في كلّ حفل **** بـــأن تبقى مـثالا للميول
هوى حصن من الإسلام حام **** تمتع أن يعذّب بالمثول
مضى حبّ وسيف مركزيّ **** ومفـــتاح وعـنوان السّبيل
شعار الخير حيا أو رحيلا **** حســـابك هيّن عند الجليل
بذلت الرّوح والجهد الكريم **** لصون الحقّ في سعى نـبيل
تنادى كلّما اندرست مزايا **** بـخدمة ديننا مثل العدول

مجالسنا تنغّص بالحمام **** بنادرنا بكته بالعويل
بكاك القلب من دون الرّياء **** بكاك الشّعر في داع جميل
وإنّك سيّد دون ارتياب **** نضالك غاسل رجس البخيل
نقيب القوم يا عبد الاله **** مشيت معجّلا أجر النّزيل
مشيت مربّيا وسط الدّنايا **** مشيت مكرما رغم السّفول
فأنت لشيخنا تلميذ خير **** رزقت به الصّعود بلا النّزول
رويت لنا صفات رائعات **** لآدم في معاداة الخمول
فكم من نازل في كلّ يوم **** يجرّ علاقم الظّلم الطّويل
شهيدًا متّ فينا يا صلاتي ****كأبعد ما يكون عن الغلول
أخا التّسبيح والتّهليل حتّى **** داره النّاس بالورد الأصيل
تعوّد منك ذكر يا صلاتي **** وصرت اليوم ذكر لزّميل
ختمت بطيّب مثل ابتداء **** من الاشياخ بل إندا بغيلي
عزاء يا مدير على البلاء **** فربّكم شكور للجميل
سيشكر حبّنا بين الضّريح **** وعند البعث بل عند المثول
بجنته ورضوانٍ يوم النّعاء **** ويعلوني مراسيم الذّهول
فلا أدري مجاري الشّعر شجوا **** على حتفٍ يفاجئ بالدّخول
ولكن قلت من باب العجاب **** أحقّا مات مقدام الخيول(١٦)

استفاد قراء المراثى العربية استفادة أدبية ولغوية من هذه المرثية وغيرها، ومن الفائدة الأدبية واللغوية في هذه المراثى أنّها تشحذ وتقوّى عقول وأذهان الطّلاب الّذين حفظوها وجمعوها مع الميادين الأخرى؛ مثلا علم الهندسة والطّبّ واللغة الأنجليزية، بزّ وبذّ هؤلاء الطّلاب قرناءهم في تلك الميادين.

الفائدة والمنفعة الاجتماعية في قرض المراثى العربية

يحتل العلماء أو الشّعراء الّذين يقرضون الشّعر العربي عموما والمرثية خصوصًا منزلة سامقة عند اليورباويين ويحترمونهم كلّ الاحترام ويبجّلونهم كلّ التّبجيل، ولذلك ضربوا المثل اليورباوي الشّهير التّالى: (Ise nla orin kewu)(١٧) التّرجمة: "إنّ قرض الشّعر عمل كبير شاق" ضربوا هذا العمل لأنّهم باشروه وعلموا ما فيه من صعوبة ودقة فنّ. وقد التفت عبد القاهر الجرجاني إلى المنزلة السّامية التى يحتلها الشّعراء. "إنّ الشّعر يكسب الدّني رفعة والغامض القدر نباهة"(١٨)

حصل شعراء المرثية اليورباويين على الشّهرة الكبيرة والقبول العظيم حتّى قال النّاس أنّهم يموتون ولكن شعرهم لا يموت. وفي رأي اليورباوويين ليس الشّاعر إنسانًا عاديًا لهم مكانة اجتماعية عظيمة ويقدّمه المجتمع اليورباوي على غيره.

لكى يتضح ما أقول نستمع إلى الدّكتور عيسى ألبي أبي بكر في قصيدته التّالية المسماة: (من أنا)

من أنا لولا أدبـــــي من أنا **** سار بسرّي في الورى معلــنا؟
وعدّتـــــي الشّعر به أعتلي **** هام العلا وهي السّني والمنـى
يا من يـــرى أني فـــي قيده **** عان أعانـي منه كلّ العـــنا
الحبّ ما انساك طعم الكرى **** والحبّ ما أصلاك نار الضّني
ما أطيب الفكر إذ أصاغه **** شعـــــر جـميل أفحم المطعنا
خدمته في صغري طـيّعا **** فجاءنـــي في كبـــــرى هــيّنا
ناجيت نفسي في الدّجى سائلا **** من أنا لولا أدبي ما أنا؟ (١٩)

إضافة إلى ذلك، نستمع إلى الشّيخ عبد الرّحيم أمين الله الأدبي في رثاءه للشّيخ محمّد كمال الدّين حبيب الله الأدبي ذاكرًا فيه منزلته الاجتماعية لأنّ شيخه علّمه الأدبي عمومًا والشّعر خصوصًا.

ترجمة الشّاعر:

ولد الشّيخ عبد الرّحيم أمين الله الأدبي في إلورن، وأخذ علومه من الشّيخ كمال الدّين الّذى زوّجه إحدى بناته قبل الاستقلال النّيجيري. أنشأ المعهد الكمالي الأدبي في فوما ببلاجى بإلورن، وعيّن مبشرًا لجماعة أنصار الإسلام. له كتيبات ورسائل وقصائد منهم بيت شعره مدح به شيخه كمال الدّين بمناسبة ختم دراسة علم العروض وهو:

بذول كريم شفوق لمن جفى **** وماذا أقول في الكمال وفي العلي

وبدأ الوعظ والإرشاد بأمر أستاذه الشّيخ كمال الدّين الأدبي عام ١٩٥٤م. لا يوجد مثقال ذرة من التّفرقة القبلية والعجب بالنّفس في قلب الدّاعية الدّولي عبد الرّحيم أمين الله الأدبي؛ توفي عام ٢٠١٢م في مدينة إلورن.(٢٠)

نص القصيدة

باسم الاله خالقي ذي النّوائل **** وأشكره شكـــرًا كفيض الهواطل
وازكى تحياتـــي على خير رسله **** مـــحمّد محمود أثل الفضائل
وذا شيخنا المقدام شيخ كمالنا **** مجاب الدّعاء فهو مفتي المسائل
وشكري كعد التّرب للشّيخ دائمًا **** على جهده دومًا على كوابل
ولولاه لم أدر اليمين عن الشّمال **** وما فزت بالخيرات بين المحافل

به صرت محبوبًا لدى النّاس كافة **** به أكرموني بين أهل الفضائل
وقد صرت ذا صيت بصيت أبي العلا **** به توّجوني اليوم تاج الأفاضل
ومن أنا بين القوم لولاك مرشدي **** ومن أنا بين الأتقياء الدّلائل
وأخرجتني والله من مورد الهوى **** ونقيت ثوبي من طخاء الأباطل
أيّها الأحباب والنّسب من أنا **** ولولا كمال الدّين معلى الأسافل
وألحقتني ثوب الكرامة والرّضا **** ونزعت عن عنقى ثياب الرّزائل (٢١)

يمدح ويرثى الشّاعر شيخه كمال الدّين الّذى علّمه اللغة العربية وآدابها وصار بواسطته إنسانا كبيرًا محترمًا ومبجلاً ومحبوبًا ومشهورًا ومقبولاً لدى الجمع إن دلّت هذه القصيدة على شئ فإنّها تدلّ دلالة واضحة أنّ علمه في اللغة العربية عمومًا ومهارته الشّعرية خصوصًا حسّنت وطوّرت حياته الاجتماعية إلى حدّ كبير.

فائدة قصيدة الرّثاء النّفسية

تطبيقًا الموضوع هذا البحث: مظاهر استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية؛ مراثي علماء بلاد يوربا نموذجًا. ومما لا بدّ من ذكره أنّ فنّ الرّثاء هو من أبرز الفنون وأكثرها صدقًا وغناءً بالتجربة الإنسانية. زد على ذلك إنّ موضوع الرّثاء من أهم الأغراض الشّعرية وأكثرها صلة بالنّفس البشرية والتّصاقا بالوجدان الإنساني. ومن أروع المراثي تفردت بالتّعبير الصّادق عن الخوالج النّفسية والنّوازع الذّاتية التى تمثلّ واقع دنيانا وما يحيطها من أكدار وما يكتنفها من مصائب ومنغصات، وأنّها إذا حملت المسرات حينًا أعقبتها حسرات في أكثر الأحيان، ومن أروع المشاعر التى يسجلها شاعر في رثائه فيعبر عن مهجة محترقة وحزن عميق وحنين لا ينفد رصيدة، ما يكون في رثاء الأولاد وهم فلذات الأكباد. ومن ذلك قصيدة التى قالها الشّيخ آدم عبد الله الألورى في رثاء ابنته خديجة.

التّعريف بالشّاعر:

ولد الشّيخ آدم عبد الله الإلوري بمدينة (واسا) في جمهورية بنين حاليا سنة ١٩١٧م من أب نيجيري وأم بنينية. وقد تربّى على يد والده الكريم وتلقى منه القرآن ومبادئ الدّين من فقه وتوحيد وغيرهما ثمّ تتلمذ عند علماء نجباء آخرين في البلاد.

وأخيرًا تتلمذ للشّيخ آدم نماج الكنوى سنة ١٩٤١م وتعلّم خلال المدّة الوجيزة التى قضى معه علوم البلاغة والعروض والقافية والإنشاء العربي وأصول الفقه وعلم الفلك والفلسفة والمنطق.

ثمّ قصد إلى مصر سنة ١٩٤٦م والتقى بشيخ الأزهر حينذاك الشّيخ بن أحمد وقدم نفسه للامتحان ونوقش أمام شيوخ الازهر في الفنون المختلفة وكان ناجحًا موفقًا، فأعطى الإجازة (الشّهادة) الأزهرية في التّدريس، وبقي الأزهر لمدّة سنة أشهر يحفظ أساليب التّدريس وأنظمة الإدار والمدرسة.

وفي سنة ١٩٥٩، أسّس مركز التّعليم العربي الإسلامي وقد تخرج فيه الآف من رجال الدّين الدّين الّذين أصبحوا اليوم اساتذة جامعية ودكاتير وأئمة وما إلى ذلك في داخل نيجيريا وخارجها.

وتقديرًا لمساهمته في نشر اللغة العربية والعلوم الإسلامية في أنحاء العالم أكرم الشّيخ آدم عبد الله الإلوري بمنحه وساما في العلوم والفنون الإسلامية من جمهورية مصر العربية سنة ١٩٨٩م. توفي الشّيخ وانتقل إلى رحمة ربّه يوم الأحد الموافق ٣/٥/١٩٩٢م في مستشفي لندن.[٢٢]

رثاء الشّيخ آدم عبد الله الإلوري لبنته خديجة

نص القصيدة

الدّهـــر سدّد سهمه ورماني **** فــأصابني في أشرف الأركان
فأصابني في مهجتي وجناني **** فسرى انتعاس السّمّ في شريان
فتوارد الأصحاب مع ترياقهم **** من هـاهنا وهنا بغير توانــي
لكنّما التّــرياق لم ينفع معي **** بل زاد منه السّم في الطّغيان
والــــرّزء سهم والهموم سمومه **** والصّبر تــرياق على الأحزان
وتلك الدّزية في خديجة ابنتي **** كانت معي كالرّوح والرّيحان
عاشت معي سبعًا من الأعوام **** في زهراتها كشقائق النّعمان
فإذا ببنتي قد توسدت الثّرى **** والجسم منـــها مــدّ للدّيدان
قد كنت أحسب إنّني عند البلا **** ثبت الجنان وصاحب الإيمان
حتّى بليت بموت بنتي هذه **** فتعطّل الإحسان من وجدانــي
فوجدت صبري لم يكن ثبتا على **** هذا المصاب بل زاد في النّقصان
فعبرت دمعًا ساخنًا من محجري **** فعلا بكائي والعويل دعاني
فهناك ناديت الفؤاد مناجيًا **** هــل في البكاء النّفع للثّكلان؟
يا عين لا تبكى على حكم القضا **** فجميعنا في قبضة الرّحمان
والنّاس مختلفون في ويلاتهم **** والكلّ يشكو مــن أذى الأزمان
لم أنتظر في الدّهر بعد مسرة **** إلا على عطف مـــــن الحنّان
فالعيش هم والمنون بمرصد **** وجميع أعمالــي على الــميزان
والله مطلّع على الأسرار لا **** تـــــخفى عليه كوامن الأكوان
يا راحم النّعاب في أعشائه **** أرحم بكائي يا عظيم الشّأن [٢٣]

فهذه القصيدة إلي جانب ما تنطوى عليه أبياتها من تفجع فإنّها تشتمل على أبيات فيها جانب كبير من الحكمة، ومساحة الحزن حين تبسط ظلالها الكثيفة المتعمقة صورة حزينة لقلب جريح بفقد عزيز

عليه فكيف إذا كانت العزيزة هي بنته التى تكبر أمامه وتنمو مداركه تحت آماله ويعلق عليها رجاءه بعد الله، فإذا به يفقدها في لمحة خاطفة ما يجهد آماله فيه ويقوّص تطلعاته نحوه، وتزداد الفحوة اتساعًا برحيل الفقيد وعدم ملئها لقلب الوالد المحزون مما يخفض لواعج الحزن ويأسوجراح الألم.

والشّيخ آدم عبد الله الإلوري الشّاعر الموهوب يصوّر بقصيدته ما لا تستطيع تصويره الالة المصورة ويجسد الواقعة بكلّ أبعادها الحسية والمعونية، ومن جميع حنباتها في أبيات ملتاعة ولذلك تجده عند وفاة ابنته في سنّ مبكرة جاشت أحاسيسه بالأحزان فاستنفرت شاعريته الخصية فكان أن ترجم مشاعره الابوية في قصيدة تنزف أبياتها بالدّمع كما كانت ابنته تنزف بالدّمع حتّى فاضت روحه.

والإنسان إذا فقد ابنه الّذى هو جزء منه وبعض من تكوينه وهو في ذاته مرتبط به عاطفيًا وإنسانيًا، فإنّه لا يجد ما يفزع إليه للتّنفيس عن مصابه نثرًا أو شعرًا وفي بكائه أو رثائه ما يخفف حدّة الفاجعة التى قد هدّت جسمه.

والشّيخ آدم عبد الله الإلوري لا يستطيع أن يخفف الامة ولا أن يردّ عنها أجلها المختوم، ولكنّه استطاع أن يرسم له صورة واقعية في متضاره مودّعًا لها يهذه الأبيات الشّعرية العاطفية.

وهذه الظّاهرة تنعكس على نفسية الشّيخ آدم عبد الله الوالد المشفق على ابنته المفارقة وهو لا يملك شيئًا إزاءه سوى أن يرسم اللوحة القائمة لمشهد الموت على هذا النّحو.

والحاصل أنّ هذه القصيدة الرّثائية قدّمت للشّيخ آدم عبد الله الإلوري الحلّ الوحيد الفعال المناسب القوي السّرمدي لمشكلته النّفسية. إن دلّ هذا على شئ فإنّما يدلّ دلالة واضحة أنّ المراثي العربية التى قرضها هذا الشّيخ لعبت دورًا كبيرًا في حياته النّفسية.

فائدة ومنفعة الرّثاء السّياسية

إنّ السّياسة قضية عظيمة كبيرة خطيرة ضرورية من القضايا الإنسانية الطّبيعة، يحتل هذا الموضوع الخطير مكانة عظيمة في إنتاجات علماء بلاد يوربا الأدبية على صفة عامة ويحتل منزلة سامقة مرموقة في شعرهم المرثى على صفة خاصة.

وجديرًا بالذّكر أنّ علماء بلاد يوربا النّيجيريين قرضوا المراثي التى هذبت أخلاق النّاس السّياسية، وإضافة إلي ذلك تشمل هذه المراثي الدّروس والنّصائح والتّوجيهات والإرشادات التي حسّنت وطوّرت وجوّدت حياة اليورباويين السّياسية، يرينا الإمام الأستاذ مسعود أديبايو هذه الظّاهرة على وجه الانصاف السّديد في مرثيته للزّعيم السّياسي والبطل الاجتماعي **M.K.O.** أبيولا الّذى توفى أثناء اعتقاله من قبل الحكومة الفيدارلية النّيجيرية:

التّعريف بالشّاعر

الشّيخ الإمام مسعود كان الشّيخ مسعود أديبايو من مواليد سنة ١٩٤٨م. بدأ تعلّم قراءة القرآن الكريم عند الشّيخ محمّد في مدينة أويو **OYO** ولكن لم يستطع أن يختم القرآن قبل وفاة هذا الشّيخ الكريم. ثمّ واصل تعلّمه القرآني عند عبد العزيز حتّى حذقه عام ١٩٥٧م وأولم لختمه سنة ١٩٥٨م التحق بمدرسة أنصار الدّين الإبتدائية بأويو وتخرّج فيها سنة ١٩٦١م. وفي سنة ١٩٦٢م التحق بمركز التّعليم العربي الإسلامي بأغيغي، وحصل على الشّهادة التّوجيهية سنة ١٩٦٩م، وكانت رغبته في استزادة العلم جعلته مسافرًا إلي القاهرة والتحق بجامعة الأزهر سنة ١٩٧٦م، ودرس في كليّة اللغة والتّرجمة، وتخرّج منها سنة ١٩٨٣م.

التحق بجامعة لاغوس (قسم الدّراسات العليا) وحصل علي شهادة الماجستير في الدّراسات العربية سنة ٢٠٠٤م. وترقى رسميا منصب الإمام الأكبر لمدينة أويو **OYO** ٢٠٠٤م.[٢٤]

النّموذج من قصيدة التى رثى الزّعيم مسعود أبيولا

علو في المعيشة والممات **** أبيولا أنت إحدى المعجــزات
أبيولا منقذ الالاف جهلا **** أبيولا موقظ الجهلا السّبات
أبيولا أسعف الفقراء مالا **** أبيولا مسعد الغفل السّــلاة
أبيولا حارب الظّلم المعادى **** أبيولا مفحم الغمر القضاة
أبيولا كشف الأضرار جهرا **** أبيولا مرشد الحيرى السّعاة
لماذا أنحن محكومون كــرها **** ويــرأسنا من الجهلا الغــزاة
نداوى الظّلم بالظّمات جوارا **** وندفع جرمنا بالسّيــنات
ولما ضاق عن قوم بداة **** مساعيهم وهم رثه الــرّعــاة
فقام المدرك الشّهم الهمام **** بتصحيح الــمواضع سالمات
فعندئذ تقدم ذو فساد **** ليحبش موقــظ القوم السّبات
أرى الزّعماء في البلدان زورًا **** قيل الموت ذا المفاوضات
تفاوضك الزّعامة بابتهال **** أبيــولا ذا عــلو في الحياة
تداعكت البلاد بموت شخص **** وأشعلت اللظى من مظلمات
أبيولا من أبرّ النّاس مالا **** أبيولا مات من غدر البغاة
أبيولا مات من يوم اعتقال **** يعيش الآن في أبد الحياة
تقلبت الأمور لرأس بطن **** ففي كلّ القلوب من اتنغاة
طيورًا بل جمادا فالوحوش **** نعاه الكلّ مـختلف اللغاة

خذوا ابناءه عظة وقوموا **** يحضن مقامـــه ومؤسسات
زليخا مركز الإسلام فيها **** فـــذ الله دنـــيا والـممات
زليخا قد بناه لنا أبيولا **** لـــتعليم العلـــوم واللـغات
لخدمة ديننا الإسلام حقًّا **** واسعاد الورى طول الحياة
أيا كولا عليك الدّور وأعلم **** فإنّ أباك من أهل الثّقاة
ودعا يا أبيولا كاشماوو **** ففي الجنات ملتقي الغـــزاة
شهيد الحقّ لا ننسى أبيولا **** أرانـــا أنّـــه ابن الكماة
وداعًا يا حبيب الكلّ إنا **** نريدك أن تعيش بلا وفاة[٢٥]

إنّ اللغة العربية عمومًا وشعرها خصوصًا أثرت إلي حدّ كبير علي حياة النّاس المادية المالية اللغوية الأدبية الاجتماعية السّياسية والنّفسية.

الاقتراحات والتّوصيات

إنّ أهمية الاقتراحات والتّوصيات في أي بحث أكاديمي لا يستهان بها، ومهما يكن من مهارة وعبقرية لا بدّ له أنّ يدلّ القارئين إلي التّوصيات والاقتراحات حول موضوعه.

اكتشف هذا الباحث انّ الرّثاء موضوع واسع شامل جدًّا، ولا يمكن له أن يعالجه معالجة كاملة في مقالة واحدة. وذلك انّ علماء بلاد يوربا النّيجيريين يهتمون بهذا الموضوع أكثر من الموضوعات الباقية.

وأخيرًا، فإنّ من واجبات الباحثين الجدد أن يضيفوا إلي المكتبة العربية بتنفيذ الاقتراحات والتّوصيات التّالية:

١- الدّراسة المقارنة بين المراثي العربية والمراثي اليورباوية النّيجيرية.
٢- أجراء البحث المستقل في الرّثاء النّثـري في الأدب العربـي.
٣- ترجمة ما عثرنا عليه من المراثي اليورباوية المحلية إلي اللغة العربية ليستفيد منا العرب كما استفدنا منهم.
٤- الاتجاه الإسلامي في مراثي علماء بلاد يوربا النّيجيريين.
٥- أساليب المعاني في مراثي العلماء المعاصرين في بلاد يوربا النّيجيريين

الخاتمة

درسنا في هذه الورقة مظاهر استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية، مستخدمًا المراثى العربية التى قرضها علماء بلاد النّيجيريين كنموذج.

إنّ هذه القضايا الانسانية تتمثل في الأمور والشّئون المالية أو المادية واللغوية والأدبية والاجتماعية والنّفسية والسّياسية، ثمّ تحدثنا عن قبيلة يوربا قبل الإسلام وبعده، قسمنا العلماء اليورباويين إلى أربعة أقسام علميًا وثقافيًا، وقلنا أنّ القسم الرّابع الأخير هم أصحاب المراثى المستخدمة في هذا البحث، تطبيقًا لموضوع

البحث، تحدثنا بالأسهاب والتّفصيل عن استثمار اللغة العربية في القضايا الإنسانية الخطيرة بواسطة المراثى العربية التى قرضها العلماء اليورباويون النّيجيريون، وأنّ اللغة العربية بصفة عامة والمراثى العربية بصفة خاصة حسّنت وطوّرت وجوّدت حياة النّاس الأدبية واللغوية والاجتماعية والنّفسية والسّياسية، وأيّدنا أراءنا بالشّواهد الشّعرية المناسبة.

الهوامش والمراجع

١- كمال الدّين علي المبارك: "الشّعر العربي في الوعظ والإرشاد في بلاد يوربا" بحث قدّمه إلى قسم اللغة العربية، بجامعة إلورن، نيجيريا، لنيل درجة الدّكتوراه ٢٠٠٦م. ص ١١

٢- آدم عبد الله الإلوري (الشّيخ): "الإسلام في نيجيريا والشّيخ عثمان بن فودى الفلاني" ١٩٧٨م. ص٣٣

٣- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم: "الشّعر الإسلامي العربي في بلاد يوربا من ١٩٦٠-٢٠٠٩م" بحث قدّمه إلى قسم اللغة العربية بجامعة إلورن، نيجيريا، لنيل درجة الدّكتوراه ٢٠٠٧م. ص ١٠

٤- آدم عبد الله الإلوري (الشّيخ): "نسيم الصّبا في أخبار الإسلام وعلماء بلاد يوربا" أغيغي، نيجيريا. ١٩٨٦م، ص ٦٩

٥- Razaq D. Abubakare: The Interplay of Arabic and Yoruba Culture in South–Western, Nigeria. Daru–Ilm Publishers, Iwo. 2004, pp 129 – 137.

٦- آدم عبد الله الإلوري (الشّيخ): "نسيم الصّبا في أخبار الإسلام وعلماء بلاد يوربا" أغيغي، نيجيريا. ١٩٨٦م، ص ١٧—١٨

٧- محمّد محمّد خليفة: الأدب والنّصوص في العصرين الجاهلي و صدر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٣٦.

٨- علي محمّد حسن العماري وزكي علي سويلم: الأدب وتاريخه في العصرين الأموي والعبّاسي، الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٣١

٩- حامد محمّد المختار إسليكوتو: أضواء على المركز والمركزيين، تشميرفتلم المحدود أغيغي نيجيريا، ٢٠٠٧م. ص ٣٤١—٣٤٢

١٠- عيسى ألبي أبو بكر: ديوان الرّياض، Alabi Printing Production, Ilorin, Kwara State, Nigeria, 2005, pp 209-210.

١١- آدم عبد الله الإلوري (الشّيخ): "لباب الأدب" مكتبة دار النّور، لاغوس، نيجيريا، ٢٠١٢م ص ٧

١٢- شبكت انترت ٣/٢/٢٠١٤م

١٣- المرجع نفسه ٣/٢/٢٠١٤م

١٤- المرجع نفسه ٦/٢/٢٠١٤م

١٥- حامد محمّد المختار إسليكوتو: المرجع السّابق، ص ٣٤—٣٥

١٦- رثاء عبد الواحد أريبي المركزي للشّيخ عبد الله الصّلاتي مخطوط، يوجد في مكتبة الشّاعر الخاصة، أغيغي، نيجيريا.

١٧- آدم عبد الله الإلوري (الشّيخ): لمحات البلورى في مشاهير علماء إلورن، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماهيز، ١٤٠٢هـ ص ١٢

١٨- هو الشّيخ عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجاني المتوفي عام ٤٧١هـ

١٩- عيسى ألبي أبو بكر: المرجع السّابق، ص ٩٠

٢٠- عبد اللطيف أحمد التّجاني أديكيليكن: "آثار الشّيخ اللبيب تاج الأدبي وكبار تلاميذه شعرًا ونثرًا"، مطبعة كيؤليرى الإسلامية، إلورن. ٢٠٠٦م. ص ٦٥—٧٠

٢١- المرجع نفسه، ص ٩٦—٩٧

٢٢- داؤد أوريمادیغن حميد: لمحة عن الأدب العربي بلاد يوربا، الطّيبون المنظر الإسلامي، نيجيريا، ٢٠٠٤م. ص ١٠٥—١٠٧

٢٣- Yekeen Taofeeq Akanni: “Shaykh Adam Abdullahi Al-Ilorin in the eyes of selected Elegists” Unpublished Long Essay for the award of B.A. (Hon) Dept. of Arabic and Islamic Studies, University of Ibadan, 2004, pp99.

٢٤- داؤد أوريمادیغن حميد: المرجع السّابق، ص ١١٦—١١٧.

٢٥- المرجع تفسه، ص ١٢٠—١٢٣